الوحش

قصة : محمود تيمور

في خيال كل امرئ بطولة مثاليه يطمع أن يحرزها ، وبطولة السبد « دكروري » التي يحرص على ألا يباريه فيها أحد ، هي أن يكون حامل الثلج المثالي .

لقد تخير هذه المهنة له ، وأولاها كل جهده ، مهنة حمل ألواح الثلج من المصنع في ضاحية المدينة الى « **قهوة النزهة** » المشرفة على شاطئ البحر وليس الطريق بين المصنع والقهوة بالقصير ، ولا هو بالسهل الميسور ، بيد أن « دكروري » يقطعه مشبوب النشاط ، لا يعروه ضيق أو ملال .

لا يكاد يهل الصيف ، وتستقبل «قهوة النزهة» روادها من المصيفين حتى يتجلى الرجل بجسد صامر ، وقامة مبسوطة ، ووجه بارز العظام ، ولكأن رأسه المستطيل شمامة قرعاء .

وانك لتراه يتدفع بخطافساح ،متعالى الهامة ، من زهو واعتزاز ، وفمه منشق عن ابتسامة عريضة فيها مخايل سذاجة واستخفاف ، وان هذه الابتسامة لهى الطابع المميز له ، فيها تتبلور شخصيته، وهى تتراءى على الفور سابحة على وجهه، تبتلع قسماته ، على حين يتمدد على كتفه لوح الثلج الغارق فى برودته فى ركون واستسلام !

والناس جميعا ،سواء المصيفون منهم وغير المصيفين ،لايذكرون متى بدأ السيد **دكروري** يزاول مهنته تلك ، ولكنهم يذكرون أنهم يرونه فى كل صيف ، وقد يخيل اليهم أن مزاولته لتلك المهنة كانت منذ حقب لايعرف مداها .وليس الرجل نفسه أكثر معرفة بشأنه من الناس حوله ، فقد أسقط من حسابه نظرية الزمن وقياس الاعمار ،لايبالى من الشهور والاعوام ، قدر ما يبالى استمتاعه بالحياة وفق هواه ، فى نطاق يومه المشهود ،بل فى حدود لحظته السابحة !

حسبك من السيد **دكروري** انه رجل واجب ، وانه عفيف أنوف ، وهو فى ترفعه عنيد الى الغاية القصوى ، أما كسبه فيأتيه من موردين : الاول أجره على حمل الواح الثلج ، والآخر ما يمنحه اياه رواد القهوة لقاء ما يقوم به لهم من أعمال وخدمات .

والسيد دكروري لا يؤدى كل عمل يطلب اليه أن يؤديه ، فله مزاج خاص فيما يقبل أن يعمل ، ومحال أن تقسره على عمل يأباه ، حتى لو استعملت على ذلك بأن تسوقه الى دار الشرطة سوقا . فهو يظل أمامك كالصنم الصلد،يطالعك بوجهه المستطيل الاصم ، لا تطرف له عين ، ولا تختلج فيه جارحة ، فلا تملك أنت الا أن تطلق ضحكة ساخرة جوفاء ، ولا يملك هو الا أن يحييك بأحسن من تحيتك أو يردها عليك ، فيعلو صوته بضحكة طائشة شوهاء ، وهو يتحسس بأصابعه العابثة قمة الشمامة القرعاء !

والرجل يعلن فى كل مناسبة ، بل فى غير مناسبة ، أنه يرفض الهبات والعطايا ، فليس هو بالمستجدى ،ولكنه رجل يكسب رزقه بعرق الجبين ،وما يمد يده الى درهم الا كان جزاء حلالا على عمل نهض به ، وانه لرجل قنوع بما يناله من كسب وان قل ، فاذا توافر له فى يومه الرزق بادر الى انفاقه مجهزا عليه وان كثر ، فنظرية الاقتصاد أو الادخار لا تعرف الى عقله طريقا ، وأما الحكمة القائلة بأن القرش الابيض ينفع فى اليوم الاسود ، فلا مكان لها فى حياته، وهو يعتبر أيامه كلها بيضا لن يغشاها سواد .... واذا لم يكن بد من حكمة يطمئن اليها ويتخذها شعارا له فى سلوكه الاجتماعى ، فهى الحكمة القائلة : اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب !

وان حرصه على اداء واجبه على الوجه الأمثل ، ليجعله يستمسك بالدقة فى ايصال الواح الثلج الى القهوة فى المواعيد المرسومة ليل نهار ، وليست عنده ساعة يستعين بها على معرفة المواقيت ، ولا هو يرضى أن ينزل عن كبريائه ليسأل أحدا ممن يحملون الساعات ، وما أغناه عن التعرف والاستخبار ، فهو قادر على تعيين الزمن بحاسة طبيعية تخلقت فيه ،ونمت نموها حتى صارت عنده حاسة سادسة !

يغادر المصنع في الوقت المحـــدد ، وعمود الثلج عـلى كتفه ، ويصـــل الى القهوة في الساعة المنتظرة ، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر ، واذا رأيته وهـو يتسلم من المصنع لوح الثلج ، ألفيته يعنى به كأنما هـــو طفل تترفق به أم رءوم ، يتناوله متلطفـا ، ثم يدرجه في الخيش المعد له كأنه قماط يحميـه من عاديات الجـو ، ويطلق به في الطريق انطلاق الصاروخ لا يعوقه شيء. فالمعابر مفتحة الابواب أمامه ،والسابلة من حوله تتباعد وتتفرق مخلية له وجه السبيل . ويظل على حاله حتى يبلغ محطة الوصول، شامخ الانف ، يملكه شعور الانتصار ، وما ان يمر بحمله ، وجســمه مندى بقطرات الماء البارد ، حتى تحس نسمة رطبـة تهب تحـوك في يومك القائظ ، فتكسبك الراحة والانتعاش .

وأسعد الأيام عند « دكروري » هي الأيام التي يتلهب فيها الجو ، تلك أيامه المباركة ، فيها يبلغ ذروة نشوته ، فهو يجوز بين الناس متحطرا ، يحمل لـوح الثلج ، وهم يصاولون سياط الشـمس الحامية ، ووهجها اللاسع ، فيرميهـم بنظرات تفجع واستعلاء ، ولسـان حاله يقول : أين انتم مني أيها المسـاكين التعساء ، انكم في النار تصلونها ، وأنا منها في برد وسلام ! .

ويوما صحا السـيد **دكروري** من نومه ، على مألوف عادته ، وزايل مأواه يتثاءب ويتمطى ، فاذا ضوء الشـمس الساطعة يجبهه ، واذا الهواء الساخن الثقيل يلفح وجهه ، واستبان له أنه في يوم من أيام الصيف العاتية ،ولاحت على فمه بسمة فيها السخرية وفيها التحدي، وحث الى المصنع خطاه ، وكلما أمعن في السير أحس وطأة الجو الحار تحيط به ، فلقد ابرت الشمس تصب على الارض جام الغضب ... وما كان ذلك بالجديد على السيد **دكروري** ، فلم يعقه عن أداء واجبه وبلغ مصنع الثلج ، وسـمع رئيس العملة يقـول . « **شـد حيلك يادكروري ، أسرع حتى لا يذوب الثلج!**»

فحدق الرجل اليه ماوسعه أن يحدق، وهو يجيب : « **لوح الثلج معى يزيد ولا ينقص ، مهما يتغير الجو يا معلم ...** »

فقال رئيس العملة : « **حقا ان جسمك مصنع ثلج آخر ، يعوض اللوح عمـا ينقص منه !** »

وأتبع قوله ضحكة مجلجلة ، ولكن « **دكروري** » قابلها بصمت وجمـود ، وغادر المصنع صلب الملامح ، في فطراته جد وتصميم ، واللوح مستقر على كتفه، ملفف في خيشـة ، وأحس برد الثلج يرطب جسده ، فنشط في السير ،وهو يمد خطوه ، ويضرب الهواء بيمناه ، كما يضرب الملاح الدرب موج البحر بمجدافه الشديد .

وطاف برأسه خاطر : **لماذا لا يغـير خط السير ، فيختزل الطريق** ؟ انه على علم بأن ثمة سبيلا آخر غير مطـروق يفضي الى الشاطىء ، لو سـلكه لبلغ القهوة في زمن أقصر ... لم يسـبق له أن اتخذ هذا السبيل ، ولكن مـاذا عليه ان فعل ، وهو ابن المنطقة ،لايخشى على نفسه فيها من شيء ؟ سيبلغ القهوة قبل الموعد المألوف على الرغم من وقدة الحر ، ولن ينقص لوح الثلج الا بعض قطرات ... سـتقع المعجـزة ، وانه لصانعها... سيفوز بالبطولة ، وسيظفر من القوم بالتمجيد والاكبار .

وما عتم أن أنفذ الفكرة ، وسـار على الدرب الجديد ، وقطع شوطا فيه ، وكان كلما دفع بخطاه اشتدت مغالبة الهـواء

الساحل له ، فالطريق مقص الى الخلاء ، وفوق ذلك فهو غير معبد ، تسيخ الأقدام في رماله ، الا أن السيد **دكروري** » لم ييأس ، وواصل سيره ، معتمدا من عزمه ، مستمدا من ذلك العمود البلوري المستريح على كتفه ما يبعث فيه النشاط والانتعاش .

ولاطف العمود بيده وهو يبتسم ... وهبت عليه بغتة عاصفة رملية طمست عينيه ، فتريث قليلا يمسح وجهه ، ثم استانف السير ، وقد هدأت العاصفة .

وغاصت قدماه في رمال حارة كاوية، فكأنما هو يمشي على جمر يتضرم ...

وتفاطر الماء على كتفه غزيرا ، فامتزج بقطرات العرق المنبثق منه ، وما هو الا أن ألقى ثيابه لاصقة بجسده ، كأنما هي قطعة من جلده ...

وتحسس عمود الثلج ، فرجف قلبه، وسرعان ما ضاعف من جهده ، واضطر أن يقف هنيهة يلتقط فيها أنفاسه المبهورة ، ورمى ببصره يمنة ويسرة ، بقعة جرداء لا يتبين فيها الا عثمة بسطتها درات الرمال الدكناء . أية وجهة يولي ؟ انه لا يخطىء أبدا ، فطرته دائما تهديه، أليس في قدمه ابرة مغنطيسية حية تتجه به الى بر الأمان ؟

وعاد يتحسس عمود الثلج ، فهاله الأمر ... يالله ... ان العمود ليتضاءل ، بل ينهار ... فابتعث من من صمته قوة ، ورج بقدميه المكدودتين يقتلعهما من الرمل كما يقتلع جذر شجرة من باطن الأرض .

ليبلغن القهوة لا محالة ...

ولكن ... واأسفاه ... لن يسعني له تسليم عمود الثلج صحيحا كاملا ! وواصل السير ، وقد اربدت سحنته الخرساء .

ومضى يستهدي فطرته في عرض الطريق ...

ولكن ماذا تستطيع الفطرة أن تصنع في تلك المتاهة العنيدة ؟

وعن له أن يعود الى الطريق المعبد ..

وأراد أن يحدد مكانه ! أين هو ؟ فأعياه الأمر ... أتكون الابرة المغنطيسية في قدميه قد أصابها عطب !

انه ليحس الضياع ، بل يحس بأنه حبيس سجن عظيم ، له أن يدور فيه ما شاء ، دون أن يتخطى أسواره ...

أليس في مستطاعه حقا أن يخلص من ذلك السجن الرهيب ؟

أليس ثمة من حيلة تعينه على أن يبلغ الشاطىء المفقود ؟

الخلق هنالك متجمعون يرتقبون مقدمه وان عددهم ليتضاعف كلما مر الوقت ، فقد أصبحوا حشدا عظيما . وسيلقونه بالهتاف ممجدين جهاده الكبير ... أتراه يخيب ظن الناس به ؟

وانطلق في الطريق ، وقد شد من عوده ، وعلا همامته ، والارهاق آخذ منه كل مأخذ .

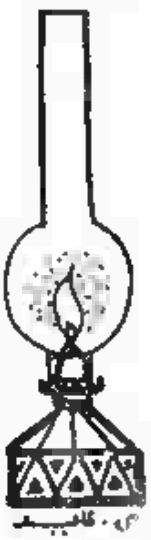

وتكاثفت العتمة من حوله ، عتمة الرمال التي تدروها الرياح ، فكأنما الليل مغسل يجر وراءه أكداس الظلام ...

وعزت عليه الرؤية الواضحة ، وجعل يدور في تلك الدوامة العمياء ، محاولا بجهده أن يتنكب عن مواجهة العاصفة ، فهو يحيد عن مهبها ريثما تسكن ، وهو يجنح الى وجهة تحميه ما أمكن ...

وتشابهت تجاه عينيه كثبان الرمال ، وأدرك أخيرا أنه قد ضل حقا معالم الطريق . وشعر بأن شفتيه يعروهما جفاف ، وأن لسانه يجمد ، وحلقه يتشقق ، بل شعر بأن أضراسه تلوك حبات الرمال ، ولا يستطيع أن يلفظها ، وأن جسمه الذي وصفه رئيس العملة بأنه مصنع ثلج قد استحال فرنا يعمل على ادانة الثلج .

وانتظمته رجفة عارمة ...

وعاد يتحسس العمود على كتفيه ، فراعه ما نابه من ضمور ...

وكأنما أصابه مس ، ولم يعد له من شاغل الا ذلك العمود الذي يكاد يفنى ، فجعل يتفقده في اللحظة بعد اللحظة ، ويتلقى ماءه المتسايل ، كأنه جريح يفقد حياته نزفا .

وأخيرا ألفى جسده يتهاوى وسط كثبان الرمال ، وأنزل العمود عن كتفه ، وطفق يعيد ادراجه في خرقته ، وان لم يبق منه الا حطام ، واحتضنه بحنان وهو يهمهم « **لن تخونني ... يجب أن تقف هذا النزف المستمر .. تعقل قليلا !** »

وادنى العمود من وجهه ، وما كادت بقاياه الباردة تلامس جدرة شفتيه ، حتى أنشب في الثلج أسنانه ينحت منه في شراهة مسعورة . ويمتص عصيره كأنه سفاح راح يعب من دم فريسته عبا ...

وفاء « **دكروري** » لنفسه ، فتعاظمه الحرم الذي اقترف ، فتحنى العمود عنه ، وهو يختلج اختلاج صريع ، وانكب على وجهه ، يملكه شهاق ...

ثم تحامل على ساقيه متثاقلا ، ومشى في بطء واعياء ...

عليه أن يعود الى القهوة ، مهما يكن من أمر ...

عليه أن يسلم لوح الثلج ، وان لم تبق منه الا أنقاض ....

عليه أن يؤدي واجبه ، وان كانت الخرقة التي حملها على كتفيه ليس فيها الا عصارة ماء ...

واستبد به عناد ومكابرة ، وقلبه يدق دقا عنيفا ...

واشتدت العاصفة الهوجاء ، تحمل معها الرمال ، وتدور بها كأنها دوامات ... وتخبط « دكروري » في سيره تخبط محموم ، ثم انهوى ...

وانبطح على وجهه ، والخرقة المبللة في حضنه ، يحوطها بذراعيه ...

وتراكمت الرمال رويدا على تلك الكومة الآدمية ، كأنما تصونها من عبث الطبيعة العشواء !

وما لبثت الكومة الآدمية تحت الرمال المنهالة عليها أن خفت حركتها ، ثم سكنت سكون الأبد ...

ولأول مرة في تاريخ المصيف ، سجل أهل الشاطىء نبأ له خطر !

أن « دكروري » حامل الثلج المثالي لم يصل الى القهوة في موعده المحدود !

« محمود تيمور »